العباس بن الأحنف

أخلاقه وفكره

الدكتورة عاتكة الخزرجي

كان العبّاس بن الأحنف ، شديد الترف ، ظاهر النعمة ، ملوكي المذهب [1] ، فاره المركب [2] ، مكتملاً أسباب الجاه ، عليه سيماء العزّ والإمارة ، حتى إنّ أبا الفرج يروي لنا في أغانيه أنه وُجد بعض شعر العبّاس في خراسان مكتوباً عليه : شعر الأمير أبي الفضل العبّاس بن الأحنف » [3] .

وكان العبّاس مترفعاً لم يُسَخِّر شعره في رغبة ولا رهبة [4] ، وكان كريماً متلافاً لا يكاد يمسك ما بيديه [5] . ترى فيم كان يُنفق العبّاس ما بيديه ؟ الراجح الثابت أنه كان ينفق أكثر ما ينفق في أسباب الترف وفي مجالس الشرب ، فديوانه يذكر لنا غير مرة أنه كان من هواة الشرب وواحداً ممن كانت تعمر بهم مجالس السماع واللهو ، ولو لم يكن له غير قصيدة في الكرة والصولجان لكان حسبه ، فالنصف الثاني منها صورة حيّة من هذه المجالس اللاهية للطبقة البغدادية المترفة ، العائشة في القرن الثاني للهجرة [6] ، وأنت واجد في ديوان الرجل من حين لحين ذكر الراح والشَّرْب والسماع والملهيات :

---

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٨ : ٣٥٢

(٢) زهر الآداب ٢ : ٩٤٤

(٣) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٨ : ٣٥٢

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٨ : ٣٥٢ ، زهر الآداب ٢ : ٩٤٤

(٥) طبقات ابن المعتز ١١٩

(٦) ديوان العباس (تحقيق الدكتورة عاتكة الخزرجي) رقم القطعة ٥١٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذكرتك بالتفاح لمّا شممته وبالراح لمّا قابلتْ أوجه الشّرْبِ
تذكرت بالتفاح منك سوالفاً وبالراح طعماً من مقبلك العذب

أو :

ألا رُبَّ يوم يا ظلوم قطعتـــه بملهية حسناء يُمظمها الشّرْبُ
فأقسم ما خانتك عيني بنظـــرة إليها ولا كفي ولا خانك القلب

أو :

يا أيها الساقي أدِرْ كأسنا واكرر علينا سيّد الأشرباتْ
وآسقِ سعيداً وابن بشر أخا شيبان من أكؤسك المترعات (١)

إلاّ أنَّ حُبَّه للشراب على ما يرويه لنا الحصري (٢) كان معتدلاً ليس فيه إسراف أو تبذل أو خروج عمّا يحفظ المروءة ، والشاعر يخبرنا مرة أنّه هجر الندامى لئلا يحول الشراب دون ما يُحِبّ لنفسه من الكرامة :

هجرت الندامى خشية السُّكْر إنما يُضيع الفتى أسراره حين يسكر (٣)

وكما ترى طائفة من مؤرخي الأدب ان العباس « كان رقيق الحاشية ، لطيف الطباع » (٤) .

يذكر لنا صاحب الأغاني أن في طبع العبّاس حدّة (٥) ولعلّ هذه الرقة المفرطة هي السبب المباشر لذلك . اسمع هذه الرواية يرويها لك صاحب الأغاني عن ابن سلاّم عن جحظة قال :

---

(١) ديوان العباس (تحقيق الدكتورة ع. خ.) القطعة ١٢٩ ، انظر أيضاً القطعة ٢١٨ و ٢٢٥
(٢) زهر الآداب ٢ : ٩٤٤
(٣) ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ) القطعة ٢٢٥
(٤) وفيات ٢ : ٢٢٩
(٥) الأغاني (طبعة الساسي) ١٥ : ١٣٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« . . كان في طبع العبّاس ابن الأحنف حِدّة واتفق أن ضرب غلاماً له وأقسم أن يبيعه فلقي غلامه فوزاً وسألها أن تشفع له عند مولاه فكتبت إليه بذلك فقال العبّاس :

يا من أتانا بالشـــفاعات من عند من فيه لحاجاتي
إن كنتُ مولاك فإنّ التي قد شفعت فيك لمولاتي
إرسالها فيك إلينـا لنا كرامة فوق الكرامات »(١)

وليس هناك سِمة أدلّ على العبّاس من سمة الظرف ، فقد كان العبّاس بن الأحنف من الظرفاء ـ كما يقول صاحب الأغاني ـ وللظرف سمات وألوان يُحَدِّدها العصر الذي عاش فيه العبّاس . ولعل الوشّاء (٢) في موشّاه خير من يمثل لنا هذه الطبقة المترفة العائشة في القرن الثاني للهجرة (انظر الموشى) بكل ما فيها من ملامح وسمات أبرزها ما تتميز به من ترف بالغ في المظهر والجوهر فهي تتأنق في الملبس والمطعم والمأكل والمشرب والمركب وهي إلى ذلك تتأنق في المجلس وترعى آدابه وتُحسن التلطف إلى الجُلاّس وتتأنق في الحرف إذ تتخذ منه الأعفّ الأنبل وتترفع عن الحُوشِيّ والسَّقَط . وهي بعد ذلك خير من يُحسن مجاملة النساء والتودد اليهن كما أن هذه الطبقة كانت عَفَّة الظاهر والباطن ، مفرطة في التهذيب ممعنة في الرقة ، ولا أراني مبالغة لو قلت لك إن الظريف البغدادي في القرن الثاني للهجرة بكل ما فيه ليبزّ الباريسي اليوم ابن القرن العشرين وسليل الحضارة المعاصرة ، لأنه كان يمتلك اللطف والرّقة والتأدب من جهة ، والمثل العليا والخلال الكريمة التي يفتقر إليها الباريسي من جهة أخرى .

إن مؤرخي الأدب جميعاً يؤكدون لنا ظرف العبّاس ، فهذا ابن المعتزّ في طبقاته يقول لنا :

---

(١) انظر الأغاني (الساسي) ١٥ : ١٣٩ ، وديوان العباس : ١٣٢
(٢) الوشّاء عراقي مات أوائل القرن الرابع الهجري ٣٢٥ ، العاشر الميلادي ٩٣٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وكان شاعراً ظريفاً ومفوهاً منطيقاً مطبوعاً ، وكان يتعاطى الفتوة على ستر وعفّة ، وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه »(١) .

إن كلمة الفتوّة التي تعني المروءة تدعونا أن نقف عندها قليلاً متسائلين : أكانت تعني الظرف في هذه الفترة من الزمن ؟

يؤكد لنا الحصري من جانبه أيضاً ظرف العبّاس إذ يقول في معرض الحديث عنه : « . . . وكانت فيه آلات الظرف جميعاً : كان جميل الوجه ، فاره المركب ، نظيف الثوب ، حسن الألفاظ ، كثير النوادر ، رطيب الحديث ، باقياً على الشراب ، كثير المساعدة ، شديد الاحتمال »(٢) .

وواضح أنّ رجلاً مثل هذا لا يمكن أن يكون فاسقاً وقد أكد لنا ذلك بصريح العبارة صاحب الأغاني (٨ : ٣٥٣) : « وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء ، وكان غزِلاً ولم يكن فاسقاً » .

والديوان كلّه شاهد على عفاف الرجل :

أتأذنون لِصَبٍّ في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يُضمر السوء إن طال الجلوس به ... عَفّ الضمير ولكن فاسق النظر(٣)

أو :

فيا ربِّ لا تشمت بنا حاسداً لنا ... يراقبنا من أهل فوز ولا أهلي
وما بيننا من ريبة فيُراقبا ... ولا مثلها يُرمى بسوء ولا مثلي(٤)

أو يقول :

وما يرى في وصال اثنين قد شغفا ... ما لم يميلا إلى الفحشاء من عار(٥)

---

(١) طبقات ابن المعتزّ ١١٩
(٢) زهر الآداب ٢ : ٩٤٤ (مأخوذ من معاهد التنصيص) .
(٣) ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ.) : ٢٨١
(٤) ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ.) : ٤١٣ : ٧
(٥) ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ.) : ٢١٧ : ٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكيف لا يكون عفيفاً من يرى في حبّه ، آية يتقرب بها إلى ربّه يوم الحساب أو يرى فيه طريقه إلى الشهادة ؟

أستغفر الله إلاّ من مودتكم فإنها حسناتي يوم ألقاه (١)

أو يقول :

فلئن هلكت لتُصْبِحِنَّ أثيمةً ولأُرزقَنَّ شهادة المتشهدِ (٢)

والعبّاس يُصَرِّح لنا بملء فيه أنّه ودود للمرأة كَلِفٌ بها مَعْنِيٌّ بأمرها :

يا بني آدمٍ تعالوا تنادي إنما نحن للنساء عبيدُ

من يلمني على النساء ألمه أنا والله للنساء ودود (٣)

ولا شك أن الإعجاب متبادَلٌ بين الشاعر والمرأة فهي دون أدنى ريب تبادله إعجاباً بإعجاب ولطفاً بلطف :

يا رُبَّ جارية أسبلت عبرتها من رقة ولغيري قلبها قاسِ

كم من كواعب ما أبصرن خطّ يدي إلاّ تشهين أن يأكلن قرطاسي (٤)

---

(١) ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ.) ٥٨٢

(٢) ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ.) ١٦٨ : ٢٧

من الواضح أن ما ورد أعلاه من شواهد تنقضه هذه الأبيات :

ولطالما مزجتْ بريقي ريقَها كالماء صُفِّق بالسُّلاف المُزبِدِ

١٦٨ : ١٤

وأنا امرؤ حلو الشمائل همتي في قطف رُمّانِ الثُّديِّ النَّهَّدِ

١٦٨ : ٢٤

يا ساقي الماء مِن فيه وشاربَه من في معانقه أفديكَ من ساقِ

٣٧٣ : ٢

أتكون هذه الأبيات قد نُسبت إلى الشاعر أو دُستْ عليه ؟ (انظر الفصل المكتوب حول النَّحل من رسالتنا عن العباس بالفرنسية) .

(٣) ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ.) ١٥٤ : ٢، ٣

(٤) ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ.) ٣٠٥ : ١٠ ـ ١١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو :

ولو اني أشـــاء لواصلتني ذوات حجى إلى وصلي صوادي
عقائل من بنات أبيك صورٌ إليَّ ذوات عطف وانقياد (١)

أو :

وأرى الكواعب يغتنمن وسائلي لولاك كان لبعضهن تودّدي (٢)

وفيمَ يقول لنا العبّاس هذا ؟

أهو غرور الرجل الشابّ بإقبال الحظّ عليه والتفاف الحسان من حوله ؟ الأولى بنا ألاّ نقبل تعليلاً كهذا ظالما أن النصوص تفصح لنا بشيء من الوضوح عن أنّ العبّاس عمد لمثل هذا إثارة لغيرة صاحبته التي لم تجزه على حبّـه إلاّ بالإعراض والإهمال .

ومن أين جاء سلطان العبّاس على النساء ؟

لسنا بحاجة إلى أن نقول إن أسباب الوصول إلى المرأة كانت مهيأة بطبيعة الحياة الحضرية في العصر العباسي ، ولا سيما في العصر الذي عاش فيه الشاعر أواخر القرن الثاني للهجرة . . فقد تخلّى العرب عن كثير من القيم نتيجة اختلاطهم بالأعاجم وتحرروا لا بل تحللوا من كثير من التقاليد العربية ، ودخلت العناصر الأجنبية دماءهم فلم تبق نقيّة ، ولا عجب أن رأينا ما رأيناه من انحراف عن النهج العربي وزيغ عن التراث الخلقي القويم .

ومهما يكن من شيء فاختلاط العبّاس بالنساء على اختلاف طبقاتهن كان سهلاً ميسّراً ، ثم إن شاعرنا كان ممن رزق صفات كثيرة تحبّبُه إلى المرأة ولعلّ أخصها سحر البيان وقوة المنطق والمقدرة على الأخذ بلُبّ السامع (٣).

ولعلّ صاحب الأغاني خير من يرسم لنا صورة من فصاحة العبّاس على لسان ابن أخته إبراهيم بن العبّاس الصولي :

---

(١) ديوان عباس (تحقيق د. ع. خ.) ١٥٣ : ٢١ ـ ٢٢
(٢) ديوان لعباس (تحقيق د. ع. خ.) ١٦٨ : ٢٣
(٣) طبقات ابن المعتز ١١٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« كان والله ممن إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت ، وكان فصيحاً جميلاً ظريف اللسان ، لو شئت أن تقول : كلامه كله شعر ، لقلت » (١) .

ويضيف الحصري :

« كان أحسن الناس إذا حدّث حديثاً ، وأحسنهم إذا حُدّث استماعاً ، وأمسكهم عن ملاحاة إذا خولف » (٢) .

وكان من الطبيعي بعد ذلك لرجل يمتلك أسباب البيان جميعاً ، إلى رهافةٍ في الحِسّ ، وتوقد في الذهن ، وحدة في العواطف ، أن يكون محبوباً في جميع الأوساط على ما فيها من تباين وتضارب .

وأظنك معي بعد ذلك في أن رجلاً مثل هذا تهيأت له أسبابه جميعاً لا بدّ أن يكون قريباً من النساء حَفِيّاً لديهن حبيباً إلى قلوبهن .

فكر العباس :

المصادر على عادتها لا تزودنا بشيء من حداثة العبّاس ، والمرجع الوحيد لنا في مثل هذه الحال ديوان الرجل ، فنظرة متفحصة إلى ديوانه تزيح لنا جانباً من الستر عن حداثة الشاعر ، ولعلّ أول ما يستوقف نظر الباحث الأثر القرآني فأنت واجد بين الفينة والفينة إشارة لقصة من قصص القرآن ، أو ذكر لبعض الأسماء الواردة فيه ، أو إشارة إلى آية من آياته :

ولقد كتبت مع البغوم وإنني لأراه أنجح من كتاب الهدهدِ (٣)

أو :

إن وجدي بفقد فوز وإشفاقي عليها والدهر دهر غَشومُ
وجدُ يعقوب بعد يوسف إذ بيض عينيه الحزن فهو كظيم

(١) الأغاني ، دار الكتب ٨ : ٣٥٣
(٢) زهر الآداب ٢ : ٩٤٤
(٣) انظر ديوان العباس (تحقيق د. ع. خ .) القطعة ١٦٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسروري بأن أراها كما سُرّ بفـــدى اسحق إبراهيم (١)

أو :

ليت لي كلمـــا ذكرتك يا فوز نهاراً أو حين تُصغي النجوم
رقدةَ الراقدين في الكهف إذ رُوعي بالحفظ كهفهم والرقيم (٢)

أو :

فليت الوصل دام لنا سليماً وعشنا مثلما قد عاش نوح (٣)

أو :

كأنه يوم يأتيـــه رسولكم قد نال ملك سليمان بن داود (٤)

أو :

ألان لداود الحديد بقدرة مليك على تيسير قلبك قادر (٥)

أو :

ألم تر داود النبي هوت به جبال الهوى فيما سمعت أو اسمع (٦)

أو :

أما والذي ناجي من الطور عبده وأنزل فرقاناً وأوحى إلى النحل (٧)

أو :

سلوا عن قميصي مثل شاهد يوسف فإنّ قميصي لم يكن قدّ من قبل (٨)

أو :

وقد أمِنّا على أسرارنا نفـراً كانوا كأولاد يعقوب يخونونا (٩)

أو :

لو تسمع الطير مانشكو عكفن بنا كما عكفن بداودَ الذي افتتنا (١٠)

(١ ـ ١٠) انظر ديوان العباس (تحقيـق د. ع. خ.) القطع ٤٦٣ و ٤٦٣ و ٣٩ : ٩ و ١٧٥ : ٣ و ٢٧٧ : ٢ و ٣٢١ : ٢ و ٤١٢ : ٤ و ٤١٦ : ١٦ و ٥١٢ : ١٣ و ٥٣٩ : ٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونرى العبّاس مؤمناً ببعض ما يؤمن به الروحانيون كأنْ نراه يتلو بعض آي من القرآن يرقى بها صاحبته من « عينٍ » أصابتها :

قرأتُ « حاميم » وعوذتُها « بالطّور » طوراً ثم «بالغاشيه»
يا ربِّ فاسمعْ واستجبْ دعوتي عجّلْ إلى سيدتي العافية (١)

وما دامت ثقافة الشاعر قرآنية فلا بُدَّ له إذن أن يؤمن بكل ما جاء في الكتاب العزيز فنرى الشاعر مؤمناً كل الإيمان بالسِّحْر والسَّحَرَة والرُّقى .

لو كنتُ أدري أنَّهُ ساحِرٌ علّقتُ تعويذاً من السِّحْرِ (٢)

أو :

وما زلن حتى ظننّ ما شئن بالرقى وحتى أصاخت للخديعة والختل(٣)

أو :

فلم تزلْ بالرقى حتى لقد تركتْ ما بيننا مثل حرب النمر والأسد(٤)

أو :

قلت غداة السبت إذ قيل لي إنَّ التي أحببتَها شاكيه
يا أيها القائل ما تشتكي قال بها عين تُرى باديه
فقلتُ عندي إنْ تشا رُقيةٌ ... الخ (٥)

* * *

ومن يتأمل الديوان يجد أنَّ العبّاس مؤمن بالقَدَر طالما يُرجيءُ الأمور إليه ويقرر عجزه إزاءه . استمع إلى الشاعر يفلسف لنا نشوء الحب ويردّ ذلك إلى القدر :

الحبّ أول ما يكون لجاجة تأتي به وتسوقه الأقدار (٦)

(١ ـ ٦) انظر ديوان العباس ، القطع : ٥٨٨ و ٢٢٣ : ١٨ و ٤١٦ : ٢٠ و ٣:١٦٦ و ٥٨٨ : ١ ـ ٣ و ٢٢١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو :

يا من تعلّقه قلبي ولم يَرَه إني دعاني إليك الحيْن والقَدَر (١)

أو :

تعرّض لي الهوى غِرّاً فشيّبني على صِغَري
وكان هواكِ لي قدراً فكيف أفِرّ من قَدَري (٢)

أو :

فأكثروا أو أقِلّوا من ملامكمُ فكل ذلك محمول على القدر (٣)

هذا الإيمان المطلق بالقدر أثار على الشاعر نقمة المعتزلة فتمثلت في مكايدة أبي هذيل (٤) العلاّف للشاعر وإنحائه باللوم عليه أو الانتقاص من قدره ولعلّ أَلْوَمَ ما يلوم عليه الشاعر جمعُه بين التقى والفجور وكونه صاحب البيتين :

إذا أردت انتصاراً كان ناصركم قلبي وما أنا من قلبي بمنتصر
فأكثروا أو أقِلّوا من ملامكم فكل ذلك محمول على القَدَر (٣)

وكانت غضبة العبّاس لنفسه ، فإذا به يكيل للعلاّف الصاع صاعين :

يا من يكذب اخبار الرسول لقد أخطأت في كل ما تأتي وما تذر
كذبت بالقدر الجاري عليك فقد أتاك مني بما لا تشتهي القدر (٥)

---

(١) انظر ديوان العباس القطعة ٢١٩
(٢) انظر ديوان العباس القطعة ٣٠٣
(٣) انظر ديوان العباس القطعة ٢٢١
(٤) هو محمد بن الهذيل بن عبيد الله بن مكحول العلاف ، المعتزلي المعروف . ولد في البصرة وسكن حيّ العلاّفين أو سوق العلف وتاريخ ميلاده غير ثابت : ١٣٥ هـ / ٧٥٢ ـ ٧٥٣ م أو ١٣٤ هـ / ٧٥١ ـ ٧٥٢ م أو ١٣١ هـ / ٧٤٨ ـ ٧٤٩ م . مات مسناً بسامراء سنه ٢٢٨ هـ / ٨٤٠ ـ ٨٤١ م أو ٢٣٣ هـ/٨٤٩ ـ ٨٥٠ م (دائرة المعارف الفرنسية ، الطبعة الثانية ، ١ : ١٣١ ـ ١٣٢) .
(٥) انظر الديوان ٢٩٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما ذهنية الشاعر الدينية فلا تزال الحجب بيننا وبينها قائمة فنحن لا نكاد نُزيح عنها إلا ما كان له مساس بعاطفة الشاعر ، ولئن بدا الشاعر لنا متناقض الصور فإن هو إلا سبب من أسباب الحياة المعقدة .

وبعض أبيات الشاعر تترجم لنا عن روحٍ تغلغل الإيمان في أثنائها ، استمع إلى الشاعر يفزع إلى الله ضارعاً إليه أن يمنّ على صاحبته بالشفاء :

يا منزل الغيث والمفرج للكر ب وياذا الإفضـــال والنعم
عجّل شفاها وآمنن عليّ بها وأجعل فداها نفسي من السّقَم (١)

وتحجّ صاحبته فيضرع إلى الله مرة أخرى يسأله أن تعود (٢) .

وقد نرى الشاعر ينذر لله نذراً هائلاً إن دام ما بينه وبين صاحبته من صفاء :

حَجّةً ماشياً ، وتحرير ما أمـــلك شكراً ، وما حييت أصومُ ..! (٣)

وأنت ترى معي أنّ هذه النذور من الاستحالة بمكان إلاّ أنها تكشف لنا على ذلك عواطف الشاعر الدينية . ونرى الشاعر في موضع آخر ضارعاً إلى الله جلّ وعزّ بحرارة المؤمن أن يجمع روحه وروح صاحبته أو يعينه على احتمال ما لا يحتمل :

فيا ربِّ ألِّفْ بين قلبي وقلبها ...
ويا ربِّ صبِّرني على ما أصابني فأنت الذي تكفي وأنت الذي تعفي (٤)

وبينا نُرى العبّاس مُفرطاً في تُقاه إذا به يفجؤنا بعصيان يطمس كل ملامح الإيمان فنراه يتحدّى الدين غير عابئ بشيء ! أيشفع للعبّاس كون عاطفة الحبّ أقوى من كل عاطفة ؟

---

(١) انظر الديوان : ٤٨٥
(٢) انظر الديوان : ٩٤
(٣) انظر الديوان : ٤٦٣ ، ١٩
(٤) انظر الديوان : ٣٥٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أستغفر الله إلاّ من مودتكم فانها حسناتي يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية فالحبّ أحسن ما يُعصى به الله ! (١)

وحين تهجره صاحبته نراه يعتب عليها برفقٍ خالٍ من حرارة الإيمان :

لو علمنا أنّ الصيام الذي ينـــسيكُمُ وصلنا قلينا الصياما (٢)

ونراه مفتوناً بصاحبته فتوناً يملي عليه أن يقول :

ولو رآها نبيٌّ في رسالته أحسّ من قلبه فيها بوسواس (٣)

إنّ مثل هذه الأحاسيس سطحية عابرة في ديوان الشاعر لا نكاد نلمحها حتى تتوارى .

ونرى إلى ذلك للأمثال في شعر العبّاس مكاناً : إن هذه الأمثال مستمدة من الشعر أو كتب الأدب ، واستعماله الأمثال يزيح لنا الستار عن جانب من جوانب ثقافته المتعددة :

« عذرت لو لطمتني ذات إسوار » (٤)

* * *

وأنت تعلم أنّ العباس عاش في عصرٍ اختلطت فيه الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية ، فقد كان لثقافة اليونان والهند والفرس أثر في ثقافة العرب إذ ذاك ، وأنت تعلم دون أدنى ريب أنّ الترجمة بلغتْ أوجها في عصر المأمون . وعلى عهد الرشيد ، حيث كان العبّاس ، بدا أثر الثقافة الأجنبية واضحاً في الآداب والعلوم وفي الحياة أيضاً . (٥)

---

(١) الديوان ٥٨٢
(٢) الديوان ٤٩٣
(٣) الديوان ٣٠٨
(٤) انظر الديوان ٢١٧
(٥) انظر صاعد الأندلسي : طبقات الأمم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس من العجب بعد ذلك أن نلحظ أثر هذه الثقافات واضحاً في بعض شعر العبّاس ، فالمحبّان لدى العبّاس ـ على نحو ما تقوله النظرية القديمة ـ روح في جسدين :

قالوا قد اعتلّ من تهوى فقلت لهم ... ويلي إذا لم أجد مثل الذي وجدا
فإنّ خالقنا للحبّ مبتدعاً ... لم يفرد الروح لما أفرد الجسدا
فلن أصحّ إذا ما كان ذا سقمٍ ... ولن أعيش إذا ما استودع اللحدا (١)

أو :

خلط الله بروحي روحها ... فهما في جسدي شيء أحدْ
فهو يحيا أبداً ما اجتمعا ... فاذا ما افترقا مات الجسدْ (٢)

أو :

قلبي وقلبك بدعة خلقا ... يتجاذبان بصادق الحبّ (٣)

هذا البيت الأخير يتراءى لنا صدىً لنظريّة أفلاطون في الحبّ التي ترى أنّ انجذاب كائنين ، أحدهما إلى الآخر، إنما يعود إلى موائمة بينهما ومجانسة تعود إلى عمق أعماقهما وأصل أصولهما في الأزل ، إن هذه العواطف التي تشدّ مخلوقين وتجعل منهما واحداً إنما تعود إلى أسرار غامضة فقد الإنسان مفاتيحها على مرّ الزمن ، ولا يذهبنّ بك الظنّ إلى أن صدى النظرية الأفلاطونية مقتصر على العبّاس وحده دون غيره إنما أنت واجد صداها في شعر معاصريه ومن سبقه (٤) .

والعشق لدى العبّاس أشعة كاشفة أو بصيرة نفّاذة تخترق الحجب : فهو يرى معشوقته حتى ـ لو تخفّتْ عنه وراء حجاب ، وما على الشاعر أنْ يحال بينه وبين النظر إليها ما دامت روحها غير خافية على روحه :

---

(١) انظر الديوان ٢٠٦
(٢) انظر الديوان ١٩١ وانظر أيضاً ١٢٨ : ٣ ، ٥
(٣) انظر الديوان ٨٩
(٤) انظر حوار ارستوفان في المأتم Platon, Banquet 478 وانظر ما كتبناه في رسالتنا عن العباس ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بنفسي التي مرّتْ بنا وهي تستخفي فأثبتها قلبي وأنكرها طرفي
ولو لم ينلها الطرف لم تك روحها لِتخفى على روحي أمامي ولا خلفي (١)

وقد نلمح في ديوان العبّاس، على افتقاره إلى الأفكار الفلسفية، بعض انعكاسات حول عبث الوجود وسراب الموجودات، والنهاية الحتمية لكل البشر من ارتفع حظّه منهم ومن خمل :

فإنْ تلحظي حالي وحالك مرّة بنظرة عين عن هوى النفس تحجب
ترى كل يوم مرَّ من بؤس عيشتي يمرّ بيوم من نعيمك يحسب (٢)

ونظرة العبّاس إلى الإنسان والوجود نظرة قاتمة : فهذا الوجود إلى زوال، وحياتنا إنْ هي إلا يوم أو بعض يوم !

إنّ تقلب الإنسان وخفّته هما اللذان يشيعان اليأس في نفس الشاعر ولعلّ السبب ما يحسه في ثنايا نفسه المحبة من ثبات وإخلاص لا يجزى عليها بسوى التقلب والغدر :

وغيّرها الزمان وكل شيء يصير إلى التغير والنفاد (٣)

ولعلّ خبرته السلبية في الحب هي التي أضفت هذه القناعة على نظرته إلى الوجود والموجودات، فهو لا يطمئن إلى الناس ولا إلى وجود الفضيلة أو الإخلاص فيهم :

وما هجروكَ من ذنب إليهم ولكن قلّ في الناس الوفاء (٤)

فهو إذن خائبٌ في حبّه ويستملي فلسفته التشاؤمية من هذه الخيبة :

أقول وداري بالعراق ودارها حجازية في حَرة وسهوب
وكل قريب الدار لا بد مرة سيصبح يوماً وهو غير قريب ! (٥)

---

(١) انظر الديوان ٣٥٦
(٢ ـ ٥) انظر الديوان ١١٢ ، ١٥٣ : ١٨ ، ٨ : ١ ، ١٢ ؛ ٢٣ ، ٢٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن إذا أمعنا النظر في شعر العبّاس نلحظ أثراً بيّناً للعذريين فيه كجميل ابن معمر وعروة بن حزام والمرقش وكُثَيِّر عزة ، ولك أن تقرأ معي ما أشير به عليك من ديوانه لتتبين مدى حظّ هذا الزعم من الصدق (١) .

ونجد كذلك في ديوان العبّاس صدى لبعض المعتقدات البدوية فنراه يتشاءم مثلاً من صياح الغراب :

تعس الغراب لقد جرى بفراق هلاّ جرى بتزاور وتلاق ! (٢)

أو نراه يتفاءل أو يتشاءم من الجهات :

وقد كنت لمّا آذنتني ببينها ومرّت بذاك البارحات الأشائم (٣)

وهو ـ على عقائد العرب ـ يؤمن أن ذكر اسم الحبيب يُذهب عن الرّجُل الحَذَر :

يا قُرَّة العين يا من لا أسميه يا من إذا خدرت رجلي أناديه (٤)

وهو يعتقد كذلك بنبوءة الأحلام :

يا صاحبيّ إلى رؤياي فاستمعا إني رأيت لدى ضوء التباشير
كأنّ فوزاً تعاطيني على فرس إكليل ريحان فغوٍ كالدنانير
الحمد لله هذا إنها جعلت في راحتي أمرها يا حسن تعبيري
إني لمنتظر رؤياي ذو أمل والحكم يأتي بتقديم وتأخير (٥)

وخرافات العصر وجدت طريقها كذلك إلى الشاعر فهو على عادة طبقته من الظرفاء يتفاءل أو يتشاءم من بعض الورد أو بعض الفواكه ! فالآس عندهم من اليأس والورد نذير بالتحول لأنه قصير العمر والأترج غير محمود لاختلافٍ بين مخبره وجوهره ! استمع معي إلى هذين البيتين :

---

(١) الديوان ١ : ٩ ، ١٠
(٢) الديوان ٣٩٠ : ١
(٣) الديوان ٤٨٠ : ٧
(٤) الديوان ٥٨٠ : ١
(٥) الديوان ٢١٨ : ٨ ـ ١١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أهـدى له أحبابه أترجة فبكى وأشفق من عياقة زاجر
خاف التلون إذ أتته لأنهـا لونان باطنهـا خلاف الظاهر (١)

وإلى هذين البيتين :

أصبحت أذكر بالريحان رائحة منها فللنفس بالريحان إيناس
وأمنح الياسمين البغض من حذري عليك إذ قيل في شطر اسمه الياس (٢)

وإلى هذين البيتين :

ووالله ما شبهت بالورد عهدها إذا ما انقضى فيما تقول الأعاجم
ولكنني شبهته الآس دائمـاً وليس يدوم الورد والآس دائم (٣)

وإلى هذين :

إنَّ الذي سمَّاكِ يا منيتي بالنرجس الغدار ما أنصفا
لو أنه سمَّـاكِ بالآسة وفيت إنَّ الآس أهل الوفا (٤)

والعبَّاس يتشاءم من الخواتم لأنه يؤمن أنها نذير القطيعة فهو يرد الخاتم على مُهديه طالباً إليه سواكاً كبديل :

ولمَّـا وهبتم خاتمـاً فرددته لمعرفتي أن الخواتيم تقطع
فأهدي سواكاً مسَّ فاكِ فإنه يسكن ناراً في جوى القلب تلذع (٥)

ممَّا تقدم بوسعنا أن نُكوِّن فكرة عامة عن فكر الرجل ورهافة حسه ورقة طبعه ، وقد نستخلص من وراء ذلك أن الرجل كان مهيئاً بحكم هذه العوامل مجتمعة للخيال والشعر والحب « الرومنتيكي » الذي وقف عليه حياته وقلبه وشعره ، وفي هذا الشعر نلمح الأثر التقليدي إلى جوار الأثر الأفلاطوني الذي يبدو لنا أكثر عمقاً وأبعد مدى، لأنه أقرب إلى طبيعة الشاعر وأمضى في الدلالة عليها.

كلية الآداب - جامعة بغداد
الدكتورة عاتكة الخزرجي

(١) انظر الموشى ١٣٢ ـ ١٣٣ ، والديوان ٢٣٦
(٢) انظر الديوان ٣١٦
(٣) انظر الديوان ٤٨٠ : ١٢ ـ ١٣ ، انظر فصل الوشاء (ما يخاف الظرفاء من تقديمه) ص ١٣٢ ـ ١٣٦
(٤) الديوان ٣٧١
(٥) الديوان ٣٥٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net